لأنها تشد القارىء باستمرار إلى لب مشكلة « النقيض » . بل انها تقدم نقيضا من نوع آخر — هو اقرب الى التباين منه الى التناقض — وهو الفرق بين حالة البطل في زمن السرد وبين حالته في الزمن الحقيقي الذي كون ما هو عليه . أي زمن النكبة والمعاناة الأصلية . وان مقاطع الحركة الداخلية هذه لا تتمازفقط ببروزها البصري الشكلي ولا بمضمونها ، ولكن بنفسها الخاص ولغتها : فهي تحاول ان تقترب من أنفاس الشعر بايحائيتها وتقطعها واتكائها المستمر على الرمز من جهة ، وبلغتها المصقولة المشحونة بالمشاعر من جهة اخرى . وحق لها أن تكون كذلك ، ما دامت حركة النفس الداخلية ، وربما حركة « الحقيقة الداخلية » ولكن الانسان لا يستريح اليها دائما ولا ينساق معها انسياقا ؛ ربما لانها لا تعطي انطباعا بأنها فيض النفس العفوي الطبيعي . أنها صنعة واعية لم يحسن صائغها الجهد الذي بذله في صوغها ، وانها لتنطق عن نفسها بنوع من التظاهرية يتناقض تناقضا واضحا مع ما يتوقعه الانسان من دفقة النفس الداخلية الانسيابية اللاواعية .

وان هذه المقاطع لتكاد « تشكل » رواية أخرى داخلية ، بعيدة زمنا ومكانا ، وموغلة في البعد ، تساير احداث الرواية الخارجية ، ولكنها من طبيعة مختلفة : من طينة رخوة شبه متشكلة ، يندمج فيها الشعور بالعقل بالوجدان بالذاكرة ، وتجري فيها محاولة جريئة لترويض الزمان والمكان ولتطويعهما بحركة المعنى وبحركة النفس ، ويمكن أن تقرأ وحدها مستقلة عن الرواية الظاهرية ، ومن هنا كان يفترض فيها ان تكون سلسلة من الهمس الخافت (لا آذانا من مكبرات المسجد في الصباح) .

ومن الحق ان نؤكد على أن هذا الحكم لا ينسحب على هذه الرواية الداخلية بأكملها : فهناك مقاطع جميلة موحية نافذة مفعمة بالصدق والحقيقة ، ولكنها مبعثرة .

ان رواية « النقيض » الداخلية — شأنها شأن رواية « النقيض » الخارجية — تعاني عدم الاستواء في الاجادة ، وما أكثر ما فيها من ارتفاعات وانخفاضات ، وما أكثر ما تفاجىء القارىء بما لا يسمح له بالاستمرار في التأثر وبالتالي التعلق بما يجري . وما أكثر المواقف الخارجية والداخلية التي تبدو مقحمة اقحاما على الرواية ، وما أكثر التداعيات التي تؤدي الى عرقلة مشروع التطور الداخلي للرواية ، وعلى الرغم من أن الرابط النفسي موجود بين اللحظة الراهنة واللحظة المستذكرة ، فان التداعي لا يبدو دائما عضوي الصلة بمشكلة اللحظة الراهنة . واذا سمح الانسان لنفسه باستخدام مقياس تقليدي لرواية غير تقليدية — وفي هذا ظلم نقر ونعترف به — فانه يستطيع بسهولة أن يسقط خلال القراءة مقاطع كثيرة من (الروايتين) دون أن يحس بتقطع شديد ؛ لان التقطع موجود أصلا .

ومما زاد الطين بلة أن المؤلف — في غمرة محاولته الجادة حشد كل أدوات التعبير والتقنية الممكنة — لم يشأ ان يستغني عن ادوات السرد غير المباشر ، مثل توصيف الشخصيات لنفسها وللآخرين ، وسرد حوارات من الذاكرة تقطع أوصالها مساند الحوار المعروفة من مثل « قال » و « قلت » ، مما يبقي وجودا ولو جزئيا لشبح « راو » غريب » محيط بالاشياء ، يفرض نفسه على الشاشة ويشهر سيفه أحيانا على انسيابيتها .

ولكن — في الرواية كما في الحياة — تختلط الحسنة بالسيئة وتتداخلان .. ومن الحق ان يؤكد دائما القارىء المنصف أن معظم ما وقع فيه أفنان من « مطبات » ناجم عن زخم رغبته في « حشد الطاقات (*) فالظاهرة السابقة مثلا نجمت عن رغبة الكاتب في الاكثار من الزوايا والأصوات وابعاد « احتكار » القص عن الشخصية « المركزية » او الشخصيتين المركزيتين (علي وكابليوك) ، وافساح المجال لزوايا اخرى من الرؤية ، حتى اننا احيانا نجد احداثا مروية بلسان شخصية ما ، وهمية ، وليست بالضرورة اسقاطا للشخصية المركزية ، بل

= وانكر انني اجزته للطباعة يومذاك وبشيء من الحماسة، ولعل في هذا ما يؤكد حسن النية التي صدرت عنها الملاحظات السلبية الكثيرة التي تتضمنها هذه الدراسة . وهذه مسألة جانبية على أي حال أرجو ان لا تعطى أكثر من حجمها .

* تفرض مصطلحات المرحلة السياسية نفسها على لغة الأدب بقوة لا تقاوم ماذا في ذلك ؟ المهم الا تهترىء بسبب سوء الاستعمال .